(3)

التفسير اللغوي لآيات الاستخلاف

تعرض تفسير القرآن الكريم في تعاملنا المعاصر إلى معضلتين:

الأولى: تجاهل وجود المفسّر، فتداول البعض أقوال المفسرين وكأنها مطابقة لمراد الله في الآية، فألغى المسافة بين ذات المفسِّر المفكرة والموضوع متمثلا في النص الديني، فبات تفسير النص له سلطة المطلق الإلهي.

والثانية: تعظيم البعض أقوال المفسِّر ظنًّا أن فهم المفسّر موضوعي تماما ليس فيه حضور لذات المفسر برؤيته الإنسانية النسبية المحتملة للصواب والخطأ المتأثرة بالأفق التاريخي، والنسق الثقافي لعصرها، فأمسى لتراث المفسرين مكانة ترتفع بكتاباتهم عن النقد والمراجعة والتجاوز، فتوقف أكثر الدارسين عند حدود الشرح والترديد؛ لذا أخّر الباحث أقوال المفسرين عن دراسته المباشرة على اللفظ القرآني، في محاولة لرفع الوساطة التراثية بين الباحث والقرآن الكريم، وليس هذا دعوة لإهدار جهود القدامى، بل للاستفادة منها بوضعها في مكانتها الحقيقية وضرورة قتلها بحثا.

وبالنظر في أقوال المفسرين حول آيات الاستخلاف في القرآن الكريم، نجد أن علاقة المفسر بالنص القرآني أخذت اتجاهين التفسير اللغوي ببيان دلالة اللفظ في لغة العرب، والتفسير بالمأثور تجميع المرويات والأدلة التاريخية رجاء الوصول إلى معنى الآية.

ويمكـن إجمال أقوال المفسرين المستندة للغة في فهم دلالات الاستخلاف في آيات القرآن الكريم في النقاط التالية:

أولا: اكتفـى المفـسرون في تناول كلمات خليفة، خلفـاء، خلْف، خلَف ببيـان الدلالة المعجمية لها، ومنه قول الزمخـشري: «الخليفة من يخلف غيره، والمعنى خليفة منكم؛ لأنهم (الملائكة) كانوا سكان الأرض، فخلفهم فيها آدم وذريتـه..»،[1] وقول ابن جرير الطبري في قولـه تعالى: «فخلف من بعدهم خلـف» بمعـنى فتبدل من بعدهم بـدل منهم»[2] في تفسـيره لقوله تعالى: «﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ أي قومًـا يخلـف بعضهم بعضًـا قرنًا بعد قرنٍ، وجيلا بعد جيل، كما قال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾، وقوله: ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ﴾، وقولـه: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِي ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾..»[3]

ثانيـا: اختلف المفسرون في المراد بالخليفة في آية سورة البقرة، فمنهم من جعلـه عاما في آدم وبنيه مـن بعده، ومنهم من جعله خاصا بآدم مستعينين في الترجيح بالمرويات، ومنهم من قال باحتمال الدلالتين.[4]

---

(1) أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، الكشَّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق عبد الرزاق المهدي ج1 ص153، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(2) أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج9 ص105، ط. دار الفكر، بيروت، 1405.

(3) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي. تفسير القرآن العظيم ج1 ص70، ط دار الفكر، بيروت،1401.

(4) قال الزمخشري باحتمال الدلالتين «يجوز أن يريد خليفة مني لأن آدم كان خليفة الله في أرضه وكذلك كل نبي.» ويجوز جعلها عامة «فإن قلت فهلا قيل خلائف=

ويتغيّر معنى الاستخلاف تبعا للتخصيص والتعميم، فلو قيل بأن الخليفة آدم خاصة، يكون معنى الاستخلاف هو تبليغ الوحي، وإن قيل بأنه عام في بنيه فيكون معنى الاستخلاف التعمير والتعبد، وكلاهما تحتمله الآية، وإن كان سياق القصة وحوار الملائكة يميل بالآية إلى الدلالة العامة.

ثالثًا: يدخل في التفسير اللغوي بعض محاولات[1] إبراز المعنى السياقي، فالآيات أتت في سياق الامتنان والتذكير بنعم الله؛ فهي - كما يراها الباحث- لا تحمل دلالة حكائيه خاصة لكنها خطاب عام لاستنهاض الهمم الإنسانية

=أو خلفاء قلت أريد بالخليفة آدم، واستغني بذكره عن ذكر بنيه كما يستغنى بذكر أبي القبيلة في قولك مضر وهاشم أو أريد من يخلفكم أو خلفا يخلفكم فوحد لذلك.» الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. تحقيق عبد الرزاق المهدي ج1 ص153،154. وجعل القرطبي الاستخلاف خاصا بآدم «فهو خليفة الله في إمضاء أحكامه وأوامره؛ لأنه أول رسول إلى الأرض» (القرطبي 1/ 66)، وجعل ابن كثير الاستخلاف عاما في بني آدم على الأرض، بقوله: «ليس المراد ههنا بالخليفة آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فقط كما يقوله طائفة من المفسرين وعزاه القرطبي إلى ابن عباس وابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا إذ لو كان ذلك لما حسن قول الملائكة «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء» فإنهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك، وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص أو بما فهموه من الطبيعة البشرية، فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمإ مسنون أو فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس ما يقع بينهم من الظالم ويردعهم عن المحارم والمآثم.» تفسير القرآن العظيم ج1 ص70، ط دار الفكر، بيروت، 1401.

(1) ينظر: عبد الله بن عمر البيضاوي الشيرازي، تفسير البيضاوي «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» ج1 ص277. ط دار الفكر. بيروت. فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي، التفسير الكبير «مفاتيح الغيب» ج2 ص.146. ط. دار الكتب العلمية. بيروت. 1421هـ - 2000م، الطبعة الأولى.

للقيام بدورها في علاقتها بالكون تعميرا وبرها تعبدا مثل آيات سورة الأعراف وفاطر.[1]

رابعًا: كلمة الخليفة في آية سورة ص دلالتها صريحة في تخصيص داود بمعنى الاستخلاف، وليست ذات دلالة احتمالية كما في استخلاف آدم في سورة البقرة، ثم اختلف المفسرون[2] هل هو استخلاف نبوة أم ملك؟؟ وأرى أن اختلاف المفسرين ناتج عن اختصاص داود وسليمان دون غيرهم من النبيين بالملك والنبوة، فحديث القرآن الكريم عن الاصطفاء من بني إسرائيل أخذ ثلاثة أشكال ملكا ونبوة، أو ملكا فحسب مثل طالوت، أو نبوةً فحسب مثل زكريا ويحيي وموسى وعيسى وغيرهم من النبين.

خامسًا: تفسير استخلاف التمكين في آية (55) من سورة النور بأنه الملك،

---

(1) ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: 74]، ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ﴾ [الأعراف: 169]، ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [فاطر:39].

(2) من أمثلة القولين: قول القرطبي: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ أي ملكناك؛ لتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر.» (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. الجامع لأحكام القرآن. ج15 ص188 ط. دار الشعب. القاهرة.) وقول الطبري بأن الله تعالى «ذكره وقلنا لداود يا داود إنا استخلفناك في الأرض من بعد من كان قبلك من رسلنا حكما بين أهلها.. فاحكم بين الناس بالحق يعني بالعدل والإنصاف ولا تتبع الهوى يقول ولا تؤثر هواك في قضائك بينهم على الحق والعدل فيه فتجور عن الحق فيضلك عن سبيل الله.» (تفسير الطبري، ج23 ص151).

فالله سيجعل من المسلمين خلفاء يتصرفون في الأرض تصرّف الملوك، غير أن المفسّر قيده بالإيمان وعمل الصالحات، ولا يخفى عموم كلمة الصالحات فيدخل فيها كل أوجه الخير من إصلاح وتعمير وتعبد وغيرهم، ممّا يُقرّب هذا الفَهْم إلى مفهوم الاستخلاف في سورة البقرة.

ومن المفسرين القلائل الذين أشاروا إلى هذا القول دون ترجيح له القرطبي في جمعه للأقوال التي قيلت في معنى الآية ونسبه لابن عطية.[1] واختار الشوكانيّ هذه الدلالة اللغوية مهملا المرويات الموجّهة للدلالة، رغم تأخره زمنا واطلاعه على أقوال سابقيه من المفسرين الذين اعتمدوا على الأثر في توجيه معنى الآية، فأبقى الشوكاني الاستخلاف والتمكين على عمومه - كما جاء في غيرها من الآيات- دون ربطه بحادثة تاريخية، أو زمن بعينه، فهو وعد الله المطلق، وجعل دلالة «الذين من قبلهم» في الآية عامة، وليست خاصة ببني إسرائيل بل في كل أمة خلت.[2]

(1) تفسير القرطبي، ج12، ص300.

(2) يقول صاحب فتح القدير «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات» هذه الجملة مقررة لما قبلها من أن طاعتهم لرسول الله ﷺ سبب لهدايتهم، وهذا وعد من الله سبحانه لمن آمن بالله وعمل الأعمال الصالحات بالاستخلاف لهم في الأرض لما استخلف الذين من قبلهم من الأمم وهو وعد يعمّ جميع الأمة وقيل هو خاص بالصحابة ولا وجه لذلك فإن الإيمان وعمل الصالحات لا يختص بهم بل يمكن وقوع ذلك من كل واحد من هذه الأمة ومن عمل بكتاب الله وسنة رسوله فقد أطاع الله ورسوله واللام في ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ جواب لقسم محذوف أو جواب للوعد بتنزيله منزلة القسم لأنه ناجز لا محالة ومعنى ليستخلفنهم في الأرض ليجعلنهم فيها خلفاء يتصرفون فيها تصرف الملوك في مملوكاتهم وقد أبعد من قال إنها مختصة بالخلفاء الأربعة أو بالمهاجرين أو بأن المراد بالأرض أرض مكة وقد عرفت أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وظاهر قوله: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كل=

ولم يُكتب لهذا التفسير اللغوي للآية شهرة لقلة ترديده في الخطاب الإسلامي المعاصر، وندرة اعتماد الكتب المعاصرة عليه على نقيض ما حدث مع تفسير الآية بالمرويات.

= من استخلفه الله في أرضه فلا يخص ذلك ببني إسرائيل ولا أمة من الأمم دون غيرها وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم معطوفة على ليستخلفنهم داخلة تحت حكمه كائنة من جملة الجواب والمراد بالتمكين هنا التثبيت والتقرير أي يجعله الله ثابتا مقررا.. (محمد بن علي بن محمد الشوكاني. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج4 ص47، ط دار الفكر، بيروت.)